الصفقة الخاسرة

قصة بقلم ابراهيم زعرور

أجال الاستاذ سليم، عينين فاحصتين في جوانب الشقة، فمسح محتوياتها بسرعة الخبير ، ثم توقفت عيناه لغير ما غرض ، عند دولاب قديم يحتل ركنا في غرفة النوم . وقال وهو ينقر باصابعه على خشب الدولاب موجها كلامه للا أحد (لا بأس) .

وكأنما فطن فجأة لوجود السمسار ، فواجهه بحركة فجائيـــة وكرر بصوت تقريري النبرة وكأنه يعي حقيقة غفل عنها طويلا

ـ لا بأس .... ولكني بحاجة الى خادمة ايضا .

وكان السمسار يهم بمغادرة الباب عندما الحقه بتأكيد جديد .

ـ اسمع .... ولا اريدها قذرة اليدين .

ـ حسنا يا سيدي .... ستكون هنا بعد الظهر بيديها النظيفتين.

همس الاستاذ سليم لنفسه عقب خروج السمسار (لقد كانـت صفقة رابحة .. هذا ما أريده بالضبط) .

مد يده فحرك مفتاح المذياع ثم اغلقه قبل ان يعي شيئا مما يقول المذيع . واتجه نحو المرآة ووقف امامها يشد قامته ويمرر راحتيه على شعره كالعادة وقال مخاطبا نفسه بصوت مسموع (لقد كبرت يا سليم في الفترة الاخيرة .. ولكن لا بأس) .

ثم اخذت اصابعه بحركة لا شعورية تتحسس حواف جيبه الجبلى باوراق النقد .

الاستاذ سليم في الثلاثين من عمره ، ولكن شعورا غامضا يعاوده بين الحين والحين بأنه قد تقدم في السن كثيرا . ومع انه حاول ان يفكر في سبب ذلك مرارا ، الا انه وفي كل مرة كان يجد ما يقتحم عليه خواطره المتزاحمة ويشتتها ، فينصرف عن الامر تاركا العمر يـــزداد ساعة بعد ساعة ويوما وراء يوم .

الذين يعرفون الاستاذ سليم ينعتون على وصفه بانه (رجل عصامي) ولكن هذه الصفة تلتصق بصمغ من المال لولاه لطارت مع الريح كأوراق الاعلانات البالية .

فقد ورث عن ابيه مكتبا تجاريا ناجحا يديره عدد من الموظفيـن ويشرف عليه شخصيا . وقد ورث عن ابيه ايضا وجها عمليا صارما وتجهما مزمنا . فكانت حركاته اثناء العمل موزونة بدقه متناهية سواء مع زبائنه او موظفيه . وقليلون هم اولئك الذين سمعوه يتكلم خـــارج نطاق العمل .

يبدأ حديثه عادة ب « يا سيد » او ما شابهها من الالفاظ المكتبيه الجافة وينهيه ب « شكرا » ولهذا فقد كان دخول الموظفين الى مكتبه نادرا . وينطبق هذا على السكرتيره التي كانت تحاول ، قبل ان تطرق بابه ، ان تبدو في غاية الاحتشام والجد ، وكأنها تستعد للدخول على والدها انصارم عقب ذنب انثوي ارتكبته .

ولم يكن يخرج عن هذا التزمت غير الفراش العجوز يوسف الذي كان يسمح لنفسه في بعض الايام ان يطرق الباب ويطل برأسه منسائلا « هل أحضر للاستاذ شيئا من العصير » ؟ .

ولكن يوسف هذا لم يكن ليجرؤ ان يفعل ذلك الا في ما بيـــن الساعة التاسعه والعاشرة ، حيث تعود الاستاذ ان يمنح نفسه قليلا من الراحـة .

ومع بهاء طلعته ، وشبابه الذي لا يتجاوز الثلاثين ، فان روحـه سبح في ابخرة من الارقام حول الارباح والخسائر لا تنتهي . وتكـاد ترى في تقاسيم وجهه جهامه ميزانيات الاعوام السابقه وثقل احتياطياتها

وخلال السنوات الثلاث الاخيرة لم يسمعه احد من المستخدمين يتلفظ بكلمة تحية واحدة أثناء عبوره الى مكتبه في الصباح .

الا ان عاملة الآلة الكاتبة زعمت قبل عام انها شاهدته يبتسم لها. ويومها ثار الهمس بين الموظفين وعم النشاط ، وقد فسر مسئـــوول العلاقات العامه تلك الابتسامة بانها « صفقة ناجحة » وقد سرت عدوى الابتسامة المزعومة الى الشفاه حتى اوشك المترجم الجديد ان يضحك بصوت عال لولا علائم الذعر التي قفزت على بقية الوجوه . غير ان جميع الموظفين يعرفون أن الاستاذ في نفس اليوم قد رد على طلب اجازة لاحد الموظفين بسبب ولادة زوجته بقوله « ولماذا تلد النساء بهذا المقدار ؟ » .

وقد تطبع المستخدمون بعادات الاستاذ سليم . واخذوها كالمسلمات او الظواهر الطبيعية القاهرة كالمطر والصيف ووجود الجهات الاربع لا يملكون نفديما لها ولا تأخيرا .

في الثامنة صباحا يدخل المكتب وفي أثره الفراش الذي يساعده في خلع سترته . ثم يضع علبة السجاير وفوقها صندوق الثقاب على الجانب الايمن من المكتب ، وعلى بوصتين يضع المنفضة ثم يرخي رباط عنقه الازرق صيفا او شتاء، ويبدأ العمل . وفي التاسعة يحتسي كوبا من الشاي وحبة من دواء ما . وفي التاسعة والنصف يخرج الـــى الموظفين ليعلن بهدوء عن نجاح صفقة ما أو فشلها .

وكان تقدير النجاح او الفشل يخضع لتقديره الشخصي دون النظر لاعتبارات السجلات والحساب . في هذا المكان تنهار جميع التعريفات التي وضعت لوصف الانسان بانه حيوان ضاحك او فنان او ما شابهها من الاوصاف مما تعودنا سماعه .

في هذا المكان يصبح الانسان الة تعمل بصمت وتقدر بانها صفقة خاسره او صفقة رابحه يقيمها الاستاذ سليم .

أما حياته الخاصة فمجهولة تماما لدى جميع الموظفين .

ولكن الخادمة العجوز التي تقوم على خدمته وخدمة امه العجوز تصفه بأنه «نموذج خاص» . يوزع مساءه بين الحديقة والمكتبة ونادرا ما يلتفت الى امه الا عندما يلتقيان على العشاء في بعض الايام . فاذا جرى بينهما حديث خاص يحاول ان يجعله رسميا بقدر الامكان، ولا مكان للعواطف في عالمه .

وعندما المحت له امه ذات يوم بموضوع الزواج ، اجابها وهو يمرر راحتيه على شعره ويتأمل المرآة :

ـ هل تريدينني ، يا سيدتي ، ان اقتفي اثار والدي يوم تعاقدتما على تلك الصفقة الخاسره ؟؟.

ولم تعاود أمه المحاولة . ورغم ثرائه العريض فان غرفة نومه تكاد تكون خالية الا من دولاب للملابس وسرير وجدول للمواقيت والمواعيد موضوع بعناية على جانب المكتب الازرق في مقابل السرير . وثمة منبه صغير على الطرف الاخر من المكتب . اما الستائر فحريرية زرقاء تتناسب مع الجدران العارية الا من صورة فضيه الاطار لصديقه الوحيد الذي توفي قبل بضع سنوات . وتروي الخادمة العجوز ، لصديقاتها، انها دخلت غرفة نومه يوما بعد ان طرقت الباب بهدوء على عادتها ، وكان يدون شيئا ما في دفتر مذكراته ويبدو انه لم يسمعها . وقد فوجئت به يمسك باصابعها ويتحسسها بعناية قائلا :

ـ ايتها السيدة : عليك ان تمرني اصابعك على الحركة يوميا ، فقد اصبحت من الضعف بحيث لا يسمع طرقها على الباب ... ولا تنسي ان تمرني ذاكرتك ايضا قبل ان تلجي من الابواب .

وفي بداية هذا الصيف قرر الاستاذ سليم ان يمنح نفسه اجازه يقضيها في احدى العواصم السياحية . ولانه لا يميل الى الفنادق بسبب طبعه الحاد ، فقد رأى ان يستأجر شقة يقيم فيها فترة اجازته، فكان ان وقع اختياره على تلك الشقة .

عندما دق جرس الباب ، كان الاستاذ يعد بلاط الغرفة طولا وعرضا فتغاضى عن خطئه في العد امام الحاح الجرس وقام الى الباب . كان الطارق هو الخادمه . فقدمت نفسها ببساطه ثم دخلت قبل ان يأذن لها . فوقف ذاهلا يتطلع الى يديها عسى الا تكونا قذرتين .

لو قدر لشخص اخر ان يستقبلها لوصفها ، فيما بعد ، بانها متوسطة الجمال حزينة العينين ، بائسة المظهر ، يطل سوء التغذية في طفولتها من حجم نهديها .

ولكن الاستاذ قدر طولها بخمسة اقدام وعمرها بعشرين عاما .

الا انه تنبه الى تنافر الالوان في ملابسها ، دون ان يدور بخلده بانها قليلة الذوق كما تعود في حالات مشابهة . ووجد نفسه يقول :

ـ اجلسي يا صغيرتي .

فبدا عليها الاستهجان والدهشة ولكنها لملمت شجاعتها وقالت :

ـ ولكنك يا سيدي لا تزيد على الخامسة والعشرين في حين انني في الثانية والعشرين افلت زمام تحفظه لثانية واحدة ، ووجد نفسه يقول مبتسما :

ـ ولكن مظهرك يوحي بان عمرك لا يتجاوز السابعة عشرة ،

وقد فطن الى انه قد تهور في الحديث وان شيئا ما حبيسا قد اندفع من داخله في غفلة منه . فاصطبغ وجهه بالدم وعض على شفته، ولكن الفرملة جاءت متأخرة عن موعدها . فظنت الفتاة ذلك حياء منه ، الامر الذي أعجبها وجعلها تنطلق على سجيتها البسيطة فأمسكت باذيال ثوبها باصابعها ونشرته كانها تعرضه للبيع ، ثم دارت حول نفسها قائلة وهي تتأمل الثوب :

ـ ذلك بسبب هذا الثوب الصغير . انه ثوب شقيقتي الكبرى ولكنها اصغر مني حجما وقد اعطتنيه يوم زفافها .

فوجد نفسه مرغما على النظر الى الثوب فشاهد رتقا صغيرا في النصف الاعلى من الجانب سببه ضيق الثوب . وشاهد طرف خيط يختلف في لونه يبرز من حافة فم الرتق . وكانت ضوابط تحفظه قد تخلخلت فقال لها مشيرا الى الرتق :

ـ عليك ان تعتني بمظهرك اكثر . فانت صبية في سن الزواج ، والمظهر الانيق في هذه الحالة له أهمية خاصة .

فردت عليه ضاحكة :

ـ لو كانت امي تفكر بطريقتك هذه لوجدت زوجا منذ مدة طويلة

ـ ثم اضافت ـ وعلى كل حال لا يخص شيئا فان نتع عين العريس على مثل هذا .... ولكن علي ان أجد ذلك العريس اولا .

كانت تلك هي أمره الاولى في حياته التي يسمح فيها لفتاة أن تخاطبه بهذه الطريقه .. ثم هو كيف يسمح لنفسه ان ينجرف مع هذا السخف ؟ فأخذ داخله يضطرب وعادت الصمامات تفتح وتقفل في رأسه بانتظام آلي ، كما اخذ فحيح الارقام يزحف خلف اذنيه . وكان يحدق في الخادمه دون ان يعي شيئا من تفاصيلها وهو يخاطب نفسه بصوت واضح « ايها السيد .. انك تقوم بعقد صفقة خسيسة » . ولكن الصبية كنست دخيلته مرة واحدة عندما سألته ببراءة موغلة في بساطتها وسذاجتها :

ـ ماذا تعني صفقة ؟؟

وقد تناولت الفتاة اللفظه باحترام زائد كعجوز تنظف كتابا ضخما تعتقده الكتاب المقدس . فرد عليها بما كانه في حلم :

ـ انها شيء ما كبير ... شيء ما كبير يا صغيرتي .

ولكن الفتاة احست بغموض موقفه دون ان تكره هذا الغموض بل اخذت تحلم به . وبغريزتها شعرت ان عليها ان تقدم شيئا فقالت بمرح:

ـ أتحب ان اقدم لك قدحا من الشاي ؟

ـ افعلي ما شئت .

عادت الصبية بقدح الشاي وهي تقول بينما هو يغرق في تفكيره:

ـ هل تعرف الحساب ؟

فابتسم وهو يرد ـ قليلا .. لماذا ؟

ـ اريدك ان تحسب لي شيئا .

ثم احضرت ورقة وقلما ونشرت الورقة امامه واضعة ابهامها في راس الورقه ، مشيرة الى المكان الواجب عليه ان يبدأ منه ، واخذت تملي عليه .

ـ اكتب ... نصف قرش فلفل اسود .

رفع رأسه متسائلا « ما هذا ؟ » فردت دون ان تهتم بسؤاله :

ـ هذا ثمن غدائك اليوم ... اكتب .. قرش بصل اخضر وبقدونس .

وراحت تعد بقية القائمة وهو يسبح في عالم اثيري لا يرى مما حوله شيئا ، وكان القلم يتحرك بطريقة آلية عندما فاجأته :

ـ اجمع .

فأحس انه امام براءة لا يملك الا ان يسايرها فراح يجمع الارقام بجدية ولهفة فكانت ستة وثلاثين قرشا ونصفا . تأمل الرقم جيدا .. حاول ان يفكر فلم يستطع . فراح يثبت الرقم بالحروف على طريقة سندات القبض ويوقع في ذيل الورقه ثم يعيد التوقيع حتى ملأ وجهي الورقه بالتواقيع .

لقد غادره الاستاذ سليم نهائيا وتركه انسانا مجهول الهوية يمتاز بصفتين اساسيتين : الطاعة المطلقه والشرود التام .

ولم يعد يفطن لفمه وهو يتدفق بحديث بسيط ساذج لم يألفه من قبل . بل ان سيل الارقام الدافق في دمه قد اخذ يسيل في هدوء ، واخذت اعمدة الحسابات تتضاءل في عروقه حتى استحالت نقاطا صغيرة سابحة لم يعد يحس وطأتها وثقلها .

حدث ذلك في الايام الاولى من اجازته . ولا شك ان السبب كان في ذلك الحديث البريء الذي تسوقه الخادمة حول مشروعاتها الصغيرة

وما يمكن ان تقوم به قروشها القليلة التي توفرها كل يـوم . فبـدأ يحس بحديثها يقطـر مرارة .

فقد ايقظت فيه هذه الشقية الصغيرة الانسان النائم ووضعته فـي مواجهة واقعـه المريع دفعة واحدة . وجعلت للحياة معنى لم يعرفه من قبـل .

وعندما سألته عن طبيعة عمله ذات يوم ، احس بجدار هائـل ينتصب امامه حائلا بينه وبيـن الحياة ، وان دوامة عاصفه اخـذت تطحنه بلا رحمـه ووجد نفسه يقول :

« انني موظف في احدى الشركات الكبرى .. ولكن مرتبي يكفـي حاجاتي اليومية والحمد لله » . وللحظة واحدة تمنى لو صحما يدعيه.

خرج مـن قوقعة تقاليده الخاصة ، فتخلص من عادة ترتيـب الكلمـات ورصفهـا ونصب الفخاخ في جوانبها كما هي عادة الكبار . كما الغى مواعيـد الشاي والتدخين ، وحتى حمام الصباح اخذ يؤخره عن موعده . وصار يجلس مسترخيا متصالب الساقين . فاعجبه هذا النمط الجديد من الحياة ، وسمع نفسه يقهقه عاليـا اكثر من مرة، فقرر المضي في هذه اللعبة . وقد اسرف في بساطته الطارئة تلـك ، فأخذ يشارك الفتاة طعامها ، ويشرب على الطريقـة التي كان يصفهـا فيمـا مضى بأنهـا بدائيـة . ولم يعـد يرى حرجا في ان يعبث فـي اسنانه .. واخيرا جاء اليوم الذي قذف فيه بأنبوبة الدواء الـى عرض الشـارع .

كانت الفتاة ترى فيه شابا مثالي التهذيب والتواضع . فازدادت قربا منه ونفانيـا في خدمته وسهرا على راحته . تتصرف بطبيعتهـا وتضفي على عملهـا الكثير مـن صفاء روحهـا التعيسة .فهي لم تلق قبل اليوم من الاحترام والتقدير ما لقيته لدى هذا الفتى الرائع ، بل الصبي الوديع ، كمـا اخذت تسميه مؤخرا . فهـو يحاول التخفيف من مشاكلهـا ويعايش احلامهـا اليوميـة الصغيرة .

وكانت تأتيه في الصباح مـن اقاصي المدينة حيث البيوت مـن الصفيح ، والاحساس من اعماق القلب الحي ، حالم رفيـق كسحاب الربيع النديّ ، وتظل في خدمته حتى المساء . كانت تشعر بملكيتهـا لهـذا الشـاب .

وفي الحقيقة ، كان سليم ببنيانه الظاهري تمثالا رائعا يـراود حلم اي فتاة . فيه وسامة تلمسها لاول وهلـة ، وفيه صفاء عينين ورقة حاشية .. ولو قدر لك ان تختار له مهنـة لكانت مهنة رجل الاعمـال اخر مـا يناسب شكلـه الظاهر . وقد ترى ان هذه المهنة لا تصلـح لـه ابدا .

وأخذت الايام تمر سراعا وقلب الفتاة يزداد التصاقا به . وبـدأ هـو يكتشف الحقيقة يومـا بعد يوم . فهي تصر على ان نجلس امامـه تمسح له الحذاء وعيناها معلقتان به كالعابد يقدم قرابينه الصغيـرة لتماثيـل الآلهـة .

وهي في يوم اخر تأتيه ببعض الحلوى الرخيصة التي اشترتهـا بقروشهـا القليلة فيلتهمها بشراهـة المحروم ، بعـد ان كانت صـورة ذلك النـوع من الحلـوى ، بذبابـه الهائم مـن حولـه تبعـث التفزز في نفسه ذات يوم .

واستيقظ من قيلولة الظهيرة ذات مرة ليجدها تقف الى جانب سريره وقد جعلت من كتاب في يدهـا مروحـة تستجلب له هواء منعشا. وعندمـا سألهـا عمـا تفعل اجابت باخلاصها الطفولي « ولكـن الجو حـار !! »

فكر ان يمنحها بعض المال ، وقبل ان يفعـل اخـذ ينافش نفسه الحساب : « هل ادفع لهـا ثمن حبها لي ؟ ان جميع نقودي وسنداتي لا تساوي رعشة حب في عينيها . بل لا تساوي ثمن قطعة حلوى حرمت منهـا نفسها . ان الاشياء لا تتجرد من معانيها ومن روحهـا بهذا الشكل القذر ، لا يا سيد سليم ، هذا لن يكون . لن ادنس الاعراس الحالمـة في روحهـا بهذه الدناءات »

ونحس الاوراق الماليـة فوجدها جيفـا عفنة يسرح فيها الدود. واخذت الارقام تتساقط جثثا شهيدة امام ناظريه فهمس بذعر : « يا الهي ... لقـد قتلت نفسي » .

وبعـد ليلة كاملـة قضاها في محاكمة نفسه بيـن تهمة ورد ، فرر الرحيل .وعندما جاءت كعادتها كل صباح .. كان كل شيء معـدا للسفـر .

بدا في عينيها ذعر حيوان رضيع .. ولكنها لم تفه بكلمة .ودلفت الى المطبخ ، حيث قدرها ، واخرجت من مكان ما لفافة صغيرة مربوطـة بعنايـه وقدمتهـا بيـد مرتعشة وهي تقول :

ـ خذ هذه ... ولا تفتحها قبل ان تصل الى بلدك .

ثم اسرعت الى المطبخ ، عالمهـا القديم ، وتهاوت في ركن صغيـر تبكـي حبهـا الراحـل .

* * *

ومن نافذة الطائرة تطلع سليم الى المدينة الرهيبة وأخذ يمسح بعينيه مبانيها بحثا عن شيء ما ، وغلالة من الدمع الرقيق تغمر عينيـه لاول مـرة .

في الصباح التالي فتح اللفافـة فوجد فيها رباط عنق حريرياحمر ومعه ورقـة صغيرة كتب فيهـا بخط بدائي « ارجـو ان تعجبك . فقد دفعت فيهـا كل ما ادخرته خلال هذا الصيف » .

عقدت الدهشة السنة الموظفين صباح ذلك اليوم حينمـا رأوا الاستاذ سليم يغير لون رباط عنقه مما شجع الفراش العجـوز يوسف ان نقول وهو يساعده في خلق سترته :

ـ ترى على وجه اللون الجديد كل الخير بامر الله .

فابتسم الشاب وهـو يـرد :

ـ هل يعجبك رباط عنقي يا « عمي » يوسف ؟

وخلال ذهول الرجل لدى سماعه كلمة « عمي » كان الاستاذ سليم يقول بنبرتـه الجـادة :

ـ لقـد دفعت اضخم صفقـة في حياتي ثمنا لهذا الرباط .

الكـويت — ابراهيم زعرور

فارس مدينة القنطرة

مجموعة قصص

بقلم الدكتور

عبد السلام العجيلي

٢٥٠ ق.ل. — صدر حديثا

منشورات دار الآداب